مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 1103 - 1125 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الأبعاد التداولية في كتاب العمدة لابن رشيق القيرواني

The Deliberative Dimensions in the Book of the Intention By Ibn Rashiq al-Qayrawani

حليمة مسعي[1]، رشيد سهلي[2] *
Halima messai [1], rachid sahli [2]
مخبر الدراسات الأدبية والإنسانية
جامعة العربي التبسي-تبسة/الجزائر
University larbi tebessi- tebessa /algeria
h.messai@univ-tebessa.dz[1] sahlirachid21@yahoo.fr[2]

تاريخ الإرسال:2020/11/06	تاريخ القبول:2021/05/12	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

يمتاز تراثنا العربي بالمرونة والتحوّل، فهو صالح لكلّ الأزمنة والعصور وبإمكان الدارس الحديث التعامل معه وربطه بالدراسات الحديثة وإسقاط مختلف النظريات والمناهج عليه، فهو يتمتع بالتغيّر لكونه ثري بالمعارف والعلوم وتهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على النظرية التداولية وإثبات أصولها في البلاغة العربية القديمة في محاولة لتقريب هذه النظرية مع فكر ابن رشيق، ودراسته ونقده بما جاء في كتابه (العمدة).

الكلمات المفتاح : أبعاد، تداولية، عمدة، ابن رشيق.

Abstract :

Our arab heritage offers a great flexibility and a capacity of transformations. It is indeed valid for times and era. The researcher may discover it and find a link with other modern studies and forget the different theories and methods. it is not stable it is rish thanks to its knowledge and sciences the present study aims at shedding light on the rotary theory, and to explain its origin in the old arabic theory within an attempt to get more information on this theory. As regards the thoughts of ibn rachik in his book "the intention"

Keywords: dimensionel, deliberative, the intention, ibn rachik

* حليمة مسعي h.messai@univ-tebessa.dz

مقدمة:

تسعى اللسانيات التداولية لدراسة اللغة أثناء الاستعمال في مقامات متباينة، بحسب مقاصد وأغراض المتكلمين كما تعنى بالاهتمام بأقطاب العملية التواصلية فتهتم بالمتكلّم ومقاصده والفائدة من خطابه والأساليب والآليات التي يعتمدها كما تراعي أحوال السامعين وظروفهم ومقاماتهم المختلفة وغيرها من الأبعاد الأخرى كالحجاج والأفعال الكلامية، ولعلّ هذا ما جعلها تتقاطع مع التراث العربي القديم وبخاصة الدراسات البلاغية، ونظرا للمكانة التي حظي بها التراث اللغوي البلاغي كانت الرغبة في الكشف عن الآليات والأبعاد التداولية فيه أكبر وبيان مدى تأثيرها لفكر علمائنا.

وهذه الدراسة انبعثت من إشكالية كانت كالتالي:- ما الأبعاد التداولية التي يحويها كتاب العمدة لابن رشيق بعدّه كتابا يضمّ كثيرا من علوم البلاغة وعناصر التواصل؟

والهدف من دراستنا هذه هو كونها تحاول الكشف عن أهم نقاط التقارب والتقاطع بين الرؤيتين التراثية والمعاصرة والكشف عن الأبعاد التداولية للتراث العربي القديم وعن أهم عناصر التداول، وقد اعتمدت في هذه الدراسة المنهج التداولي الذّي رأيته كفيلا بهذا البحث مع الاستعانة بالمنهج الوصفي نظرا لطبيعة الموضوع الذّي يصف الظواهر اللغوية والعناصر من سياق ولغة وغيرها.

أولا: مفهوم التداولية:

تُعدّ التّداولية من المفاهيم الحديثة التي تعنى بدراسة اللغة في الواقع والاهتمام بعلاقاتها مع مستعمليها وفقا للظروف والأحوال المطابقة لهذا الواقع وبالتالي فهي تهتم بالمقاصد المتضمنة من خطاب كلا الطرفين مع مراعاة السياق الكلامي. ونجد في سياق هذا الحديث نصا مقتبسا من معجم "أكسفورد" يتحدث فيه عن التداولية ومقاصد اللغة المختلفة ويندرج هذا في النص الأوّل:

- **النص الأوّل:**

Pragmatics (noun, linguistique) : the study of the way in which language is used to express what's b really means in particular situations especially when the actual words used may appear to mean sth different.

-pragmatism: noun(u) (formal) thinking about solving problems in a practical and sensible way rather than by having fixed ideas and theories.[1]

ترجمته:

التّداولية (البراغماتية):اسم/اللسانيات، هي علم دراسة اللغة، حيث تدرس كيفية استعمال اللغة لتعبّر بصفة واقعية حقيقية عن المقصود في حالات خاصة، ولاسيما عندما تكون الكلمات الفعلية(الواقعية) التي استعملت يمكن أن تظهر لتعني لك شيء مختلف، والتداولية تعني التفكير حول حل المشكلات بطريقة عملية وعقلانية بدلا من امتلاك أفكار ثابتة ونظريات.

فالتداولية تعني الاستعمال الفعلي للغة وفق ظروف وسياقات تحددها لكي يُفهم منها مقاصد ومضامين هذه اللغة خلال تبادل الاحاديث عن طريق طرفي العملية التواصلية (المرسل والمرسل إليه).

وفي سياق آخر يرى كل من **"جوليان غريماس" (j.Greimas) و"جوزيف كورطي (J.courtés)** أنّ هدف التداولية هو إرساء مبدأ التفاعل وعنصر التأثير في العملية التواصلية بين المتخاطبية وذلك لنجاحها وإستمرار عنصر الإفهام والإيضاح لأنّه كلّما فُهم المعنى المقصود كلّما نجحت عملية التواصل التخاطبية، وقد ورد هذا المفهوم في النص الآتي:

➢ **النص الثاني:**

La pragmatique, au sens américain, vise essentiellement à dégager les conditions de lacommunication (linguistique), telles par exemple- que la manière, pour deux interlocuteurs, d'agir l'un sur l'autre-pour nous, cette (pragmatique) du linguistique qui a tarait aux caractéristiques de son utilisation, constitue un des aspects de la dimension cognitive car elle concerne en fait la compétence cognitive des sujets communicants, telle qu'on peut la reconnaitre (et en reconstruire le simulacre) à l'intérieur des discours-énoncés ainsi:
Le faire persuasif et le faire interprétatif ne constituent pas des paramètres (extralinguistiques) comme pourrait le laisser entendre une certaine conception mécanisme de la communication-tel qu'il est envisagé par la sémiotique –ou le destinateur et le destinataire ,par exemple, ne sont pas des instances vides(tels l'émetteur ou le récepteur)mais des sujets compétens.
Il va de soit que, dans la ligne même de la (pragmatique) américaine une sémiotique de être élaborée en la communication (réelle) (en tant qu'objet descriptible)peut extrapolant en particulier les modèles de la sémiotique cognitive, issue de l'analyse.[2]

ترجمته:

التّداوليّة: في المفهوم الأمريكي تهدف أساسا لتحديد عوامل التواصل (اللسانية)، مثلا: الطريقة التي يتفاعل بها المتخاطبون مع بعضهم البعض، كما يعبّر هذا المفهوم أنّ تداوليّة الخطاب تدخل في تكوين جانب من جوانب البعد المعرفي لأنها تخص القدرة المعرفية للفاعلين المتحدثين(المرسل والمرسل إليه) الذين يُعتبرون عوامل مؤثرة في عملية التواصل، كما يُعدّ هذا الاتجاه أنّ الفعل التأثيري له أهمية كبرى في عملية التواصل بجميع مراحلها، فالتداوليّة بهذا المفهوم فعل تأثيري يعتمد على القدرة المعرفية (الكفاءة) المشتركة والمتبادلة بين طرفي العملية التواصلية (المخاطَب والمخاطِب) اللذّان يساهمان في تطوير وإنجاح عملية التواصل.

ثانيا–تداولية المخاطِب عند ابن رشيق:

للمخاطب دور بارز في التراث العربي القديم بصفته المنتج لعملية الخطاب، ولأنّه الركيزة التي ينطلق منه الخطاب والمقاصد، وهو الذي يحدد الدلالات والألفاظ وهو السبب في إقناع الطرف الآخر وهذا الأخير كان نقطة تباين وخلاف بين الدرس العربي بشكل عام وبين اللسانيات الحديثة، حيث قامت هذه الأخيرة في بادئ الأمر بإهمال هذا العنصر المهم وهو المتكلم وتمركزت دراستها حول بنية اللغة الداخلية البعيدة عن كل السياقات الخارجية والأطراف الإنسانية المحيطة بها ومن ضمنها المتكلم، وظلت على هذه الحال عقودا طويلة حتى جاءت نظرية تشومسكي وتضمنت انتقادات حول المنهج البنيوي وعارضت فكرة انغلاقه على اللغة، كما ساندته في ذلك فلاسفة اللغة، ومن ثم انطلقت فكرة الاهتمام بالطرف الغالب في عملية التخاطب، ألا وهو المتكلم، ولكن بالنظر إلى الدرس العربي، وبخاصة البلاغي كان منذ بداياته يهتم ويراعي العناصر المشكلة والمساهمة في الخطاب، حيث تعددت أشكال الاهتمام به.

حيث نلحظ في كتاب العمدة لابن رشيق أنه ينطلق من الطرف الأول في العملية التواصلية الإبداعية ألا وهو "الشاعر" فيهتم بإبداعاته وانتقائه لأحسن الألفاظ ومعانيها لجلب المتلقي وإقناعه والتأثير فيه، فالمخاطب يعتبر الذات المحورية في إنشاء الكلام لإبلاغ المتلقي مراده وإفادته.

ويحدّد ابن رشيق مجموعة من الخصائص للشاعر، إذ سمي الشاعر شاعرا لأنه يشعر بما لا يشعر به غيره، فإذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه، أو استطراف لفظ وابتدعه،

وزيادته فيما أجحف ولاختراعه، أو استطراف لفظ وابتداعه، وزيادته فيما أجحف فيه غيره من المعاني، أو نقص مما طاله سواه من الألفاظ، أو صرف معنى إلى وجه عن وجه آخر، كان اسم الشاعر عليه مجازا لا حقيقة، ولم يكن له إلا فضل الوزن، وليس بفضل عندي مع التقصير.[3] فالشاعر المرهف الحسن، ذو الفكر الراجح والعقل المتزن الذي يصور لنا حقيقة الواقع النابع من صدقه، كل هذا يساعده في موهبته الفنية وإبداعه، فالتوظيف الحسن والمتميز للألفاظ يجعل الشاعر —حسب ابن رشيق– يستحق هذا اللقب حقيقة ليس مجازا.

ونجد أيضا من مظاهر عناية ابن رشيق بالمتكلم وآدابه، حيث يقول: من حكم الشاعر أن يكون حلو الشمائل حسن الأخلاق، طلق الوجه، بعيد الغور، مأمون الجانب، سهل الناحية، وطئ الأكناف فإن ذلك ما يحببه إلى الناس ويزينه في عيونهم ويقر به من قلوبهم، وليكن مع ذلك شريف النفس، لطيف الحس، عزوف الهمّة، نظيف البزة، أنفا، لذهابه العامة ويدخل في جملة الخاصة فلا تهجه أبصارهم، وإلا فهو كما قال ابن أبي فنن واسمه أحمد:[4]

وإنّ أحقّ النّاسِ باللومِ شاعرُ يلومُ على البُخْلِ الرجال ويبخلُ

.ونلاحظ أيضا اهتمام ابن رشيق بعلم البيان، حيث جعل إفادة السامع وقصد المتكلم لبّ الدراسة وفحواها ، يقول في كتابه العمدة: قيل لبعضهم، ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة، وقال آخر: البلاغة أن نفهم المخاطب بقدر فهمه، من غير تعب عليك».[5]

إنّ اتخاذ ابن رشيق القصد/ النية جوهرا للشعرية وأحد ركائزها، كما أكد على أن المقصدية تؤثر تأثيرا بالغا في المتلقي وتعمل على تحريك عواطفه وانفعالاته لأنّه اتجاه النص الشعري باعتباره «الفلسفة وجر الأخبار باب آخر غير الشعر، فإن وقع فيه شيء منهما فيقدر، ولا يجب أن يجعل نصب العين فيكون متكئا واستراحة، وإنّما الشعر ما أطرب وهزّ النفوس وحرّك الطباع، فهذا هو باب الشعر الذي وضع له وبني عليه سواه».[6] فالشاعر بشخصيته المبدعة وإحساسه المرهف ومشاعره الجياشة وكفاءته اللغوية الشعرية يجعل المتلقي يتفاعل مع كل ما يقدمه في النص الشعري من معاني في قالب جديد ومتميز، وهو ما يعكس رغبة الشاعر في الرقي بشعره والوصول به إلى درجة الكمال، وبالتالي تتمكن العملية الإبداعية من تحقيق غايتها، وتحقيق الاستجابة المتوقعة من المتلقي ونجد ابن رشيق معلقا على قول أبي عثمان الجاحظ في حديثه عن جودة الشعر

وتلاحم أجزائه وسهولة مخرجه فيقول: «إذا كان الكلام على هذا الأسلوب الذي ذكره الجاحظ لذّ سماعه وخف محتمله، وقرب فهمه، وجذب النطق به، وجلي في فهم سامعه، فإذا كان متنافرا متباينا عسر حفظه، وتقل على اللسان النطق به».[7] فبالتالي ابن رشيق يشترط أن تتوفر في المتكلم الكفاءة اللغوية التي تمكنه من نظم الكلام فينتقي الألفاظ ويقر فهمها إلى السامع، وأن لا تتنافر حتى يصعب حفظها وتثقل على اللسان، فبذلك يكون مدركا للإمكانات اللغوية من تقديم وتأخير وحذف وذكر وغيرها من جهة الجمالية للنص، فجمالية النص وبلاغته الشعرية عند ابن رشيق ترتبط بالمتكلم (الشاعر/ أو البدع) ومدى براعته وامتلاكه للإمكانات اللغوية ولآداب الكلام.

يتجلى إذا بوضوح وعي ابن رشيق بأهمية المتكلم/ المبدع وبآدابه وإحساسه وانتقائه للألفاظ ومعانيها ومراعاة القصدية والنية في الكلام لإفادة السامع والتأثير فيه، وهذا ما يتقاطع ويتشارك فيه ابن رشيق علماء اللسانيات التداولية في عنايتهم بالمتلفظ، يعده محور العملية التخاطبية وذاتا مركزية، ومع الدراسات النقدية الحديثة في نظرية المتلقي والشعرية الباحثة عن جماليات النص الأدبي التي يصنعها المتكلّم.

وقد أردف ابن رشيق تعريفا آخر في كتابه العمدة بقوله: قال عبد الله بن محمد بن جميل المعروف بالباحث: البلاغة :الفهم والإفهام وكشف المعاني بالكلام، ومعرفة الإعراب والاتساع في اللفظ والسداد في النظم والمعرفة بالقصد، والبيان في الأداء وصواب الإشارة وإيضاح الدلالة، والمعرفة بالقول والاكتفاء بالاختصار عن الإكثار وإمضاء العزم على حكومة الاختيار.[8]

وابن رشيق استند بهذه التعريفات من أجل التأكيد على أن البلاغة هي الإفهام وإبلاغ القصد حيث يكتسب القصد مكانة بارزة في الدرس البلاغي، فهو الأساس الذي تبنى عليه العملية التواصلية فالمتكلّم إذا لم يؤد في كلامه مقتصدا لا يعد متكلما.

كما ركز ابن رشيق في كتابه على الإيجاز والفصاحة والإبلاغ والإفهام حيث يقول في المجاز: "هو دليل الفصاحة ورأس البلاغة"، ويقول أيضا في باب المجاز هو: «في كثير أبلغ من الحقيقة وأحسن موقعا من القلوب والأسماع».[9]

وكذلك في حديثه عن الالتفات، الذي هو مرتبط بالمتكلم وهو يستخدم هذا الأسلوب لجلب انتباه السامع مراعيا حالته النفسية والاجتماعية أيضا، وهو مجال حي من مجالات اللسانيات التداولية.

كما نجد أيضا أسلوبه الاستطراد الذي أورده ابن رشيق في العمدة، حيث يقول: هو الذي أن يرى الشاعر أنه في وصف شيء وهو إنما يريد غيره، فإن قطع أو رجع إلى ما كان فيه، فذلك استطراد وإن تمادى فذلك خروج، أو أكثر للناس يسمى الجميع استطرادا.

فأوضح الاستطراد قول السموأل وهو أول من نطق به حيث يقول:[10] من الطويل:

ونحنُ أناسٌ لا نَرَى القتلَ سبَّةً إذا ما رأتْهُ عامرٌ وسلولُ

يقربُ حبُّ الموت آجالنَا لَنَا وتكرهه آجالهم فتطولُ

فالاستطراد من المصطلحات البديعية التي توضح وتكشف براعة الخطاب ودقة المعنى وهذا الأسلوب يستخدمه الشاعر الفصيح البليغ المتمكن من شعره.

وقد يسمى أيضا لفظة الخروج وهي الانتقال من غرض إلى آخر، وطلب فيه التلطف لأبعاد نفسية وفنية، ذلك أن اللطافة ومراعاة الحالة النفسية للسامع تشعره بالارتياح، وهو ما يصب في وعاء اللسانيات التداولية، وهو مراعاة أحوال وظروف المتلقي، لذلك نجد ابن رشيق ينوع في ذكر الأساليب البلاغية التي على الشاعر أي (المتكلم) أن يستعملها ويراعي فيها نفسية السامع.

وفي حديثه أيضا عن مقاصد الكلام، فقد ذكر أن أول ما يحتاج إليه الشاعر –بعد الجد هو الغاية، وفيه حده الكفاية–حسن التأتي والسياسة وعلم مقاصد القول، فإن نسب ذل وخضع، وإن مدح أطرى وأسمع، وإن هجا أخل وأوجع، وإن فخر خب ووضع، وإن عاتب خفض ورفع، وإن استعطف حن ورجع، ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنا من كان، ليدخل إليه من بابه، وبداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي تفاوت الناس وبه تفاضلوا.[11] فالقصد والغاية والغرض هو الأساس المهم لنجاح العملية الإبداعية التواصلية، كما أنّه على المخاطب الالتزام ببعض الآداب والاعتبارات التي تجعل السامع في حالة تأثر وإفهام وبالتالي نجاح العملية التخاطبية.

ثالثا– تداولية المخاطَب عند ابن رشيق:

يعد المخاطب (السامع) الطرف الثاني في عملية التخاطب، وعلى أساس هذا الأخير يحدد المخاطب رسالته (خطابه) فيرسم بذلك إستراتيجية تتناسب قصده وتراعي حال مخاطبه ومشاعره كل يضمن لكلامه الفائدة، ومن مظاهر عناية ابن رشيق بالسامع في كتابه العمدة اهتمامه بمبدأ القصر والنية ومطابقة الحال وقد قيل: «لكل مقام مقال: وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته من مدح وغزل ومكاتبه وهجون وتخزية، وما أشبه ذلك».[12]

فهو يهتم أساسا بالمقام ومن ضمنه حال السامع فإذا تحققت المطابقة نتجت عنها الإفادة في الكلام، وبذلك فهو يشترط الإفادة والقصد، وهذا من مظاهر الدراسة التداولية عند ابن رشيق حيث يقوم على تأليف الشعر من طرف الشاعر في ضوء المقام وحسن النية والقصد والإفادة في حد ذاتها سمة تداولية تستند عليها اللسانيات التداولية في دراسة اللغة أثناء الاستعمال.

ولكي يصل الشاعر لمقصده عليه توخي بعض الخصائص والصفات التي تجعله يدرك التمايز بين أغراض الكلام ولتحقيق ذلك «يجب للشاعر أن يكون متصرفا في أنواع الشعر: من جد وهزل، وحلو وجزل، وأن لا يكون في النسيب أبرع منه في الرثاء، ولا في المديح، أنفذ منه في الهجاء، ولا في الافتخار أبلغ منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا في سائرها منه في الاعتذار، ولا في واحد مما ذكرت أبعد منه صوتا في سائرها، فإنّه متى كان كذلك حكم له بالتقدم، وحاز قصب السبق كما حازها شار وأبو نواس بعده».[13]

فقدرة الشاعر على التنويع ووضع الأمور ما يلائمها وما يتناسب معها وبراعته وفطنته يجعل هذا من الشاعر شاعرا حقيقيا، لأنه بذلك يدرك المقامات والمناسبات فيعطي لكل ذي حق حقه، فرؤية ابن رشيق للتنويع بين أغراض الكلام (الجد والهزل) مثلا يضمن له انجذاب واستحالة المتلقي إلى النصب، وبالتالي فالتنويع بين الأساليب بالنسبة إليه دافع قوي لنجاح عملية التخاطب والتفاعل بين المتكلم والمتلقي.

فمراعاة مقام المتلقي وحالته النفسية تستوجب التوضيح والبيان لإفادة المتلقي فجعل بذلك الشاعر يبلغ مقصده من مدح الملوك، بترك إيقاع النصب في نفوسهم والتأثير فيهم والتفاعل معهم، فيحصل الرضا والتجاوب.

أمّا ما يتعلق بمدح الوزراء والكتاب، فإنه يتوجب على الشاعر أن يوظف —حسب نظرة ابن رشيق «ما يناسب حسن الرؤية وسرعة الخاطر بالصواب وشدة الحزم، وقلة الغفلة وجودة النظر للخلفية والنيابة عنه في المعضلات بالرأي أو بالذات... وبأنه محمود السيرة حسن السياسة، لطيف الحس، فإذا أضاف إلى ذلك البلاغة والخط والتفنن في العلم، كان غاية».[14]

معنى ذلك أن لكل ممدوح ما يناسبه من مدح ومن انتقاء اللغة والألفاظ والصفات التي تتفق مع المقام، كل هذه التبريرات المقدمة من ابن رشيق، بغية الدفاع عن الشعراء، وربما لأنه في حقيقة الأمر كان يدافع عن نفسه، لأنه كان شاعر بلاط وصاحبا لأميرين هما: المعز بن باديس الصنهاجي وابنه تميم، ولهذا ما برح ابن رشيق يدافع عن الشعراء ويبين أن هناك فرقا في من يمدح ملكا وفيمن يمدح سوقة.

الأمر نفسه ينطبق على مدح القضاة، لما يناسب مقاماتهم العلمية والدينية ومن ثم الشاعر «أن يمدح القاضي بما يناسب العدل والإنصاف وتقريب البعيد في الحق، وتبعيد القريب والأخذ للضعيف من القوي والمساواة بين الفقير والغني وانبساط الوجه، وبين الجانب وقلة المبالاة في إقامة الحدود واستخراج الحقوق، فإن زاد ذلك ذكر الورع والتخرج وما شاكلها، فقد بلغ النهاية».[15]

فابن رشيق يدعو بهذا القول أن ندرك الفروقات الموجودة بين الممدوحين من حيث المنزلة والمرتبة الدينية والسياسية والاجتماعية من أجل إبصال المقاصد التي بني من أجلها النص.

فتناول ابن رشيق المقاصد المختلفة للأغراض الشعرية وفقا للفروقات الشخصية ووفقا لمكانة المتلقي تجعلنا ندرك نقاط التلاقي مع اللسانيات التداولية في اهتمامها بالمقصدية كمبدأ أساسي في عملية التخاطب، فالنص موئل لتقاطعات عديدة بين المتكلم (المتلفظ بالخطاب) وبنية النص أو الخطاب والسامع وما يطرأ عليه من مقاصد المتكلم، حيث عد ركيزة أساسة في العملية التواصلية بواسطتها يتحقق الفهم والإفهام.

إنّ غاية ابن رشيق بعناصر الخطاب ومقاصد المتكلم والأغراض الشعرية جعلت من كتابه العمدة مجالا خصبا وثريا لإقامة لسانيات تداولية عربية تهتم بالمعنى وتتخذ من اللغة اللبنة والركيزة الأساسة للدراسة والتحليل أثناء الاستعمال، ذلك أن الذي يهتم بالمخاطب والمخاطب والخطاب والمقام ومقتضى الحال ومقاصد الكلام والإفادة كلها مؤشرات للدراسة التداولية ومفاهيم

لها، ولابد له وأن يدرج ضمن الاهتمامات التداولية في التراث اللغوي العربي وبخاصة البلاغي منه، حيث تزخر البلاغة بآليات متنوعة وعديدة تحقق الترابط والانسجام والتضام داخل النص، ولذلك صرح فان دايك (Van dijk) بأن «البلاغة هي السابقة التاريخية لعلم النص».[16]

رابعا– المقام ومقتضى الحال:

تحدث العرب القدامى في جوانب عديدة عن مسألة المقام، واعتبروه مناسبة القول وملابساته ودعوا إلى ضرورة مراعاته والتقيد به في الخطابات، وهو من المفاهيم التي تربط بين التداولية الحديثة وبين فكرة مقتضى الحال في البلاغة العربية فيقول "صلاح فضل" في هذا الصدد: «ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة (مقتضى الحال) وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية (لكل مقام مقال)».[17]

وقد أورد ابن رشيق هذه المقولة الشهيرة في كتابه فيقول: «وقد قيل: لكل مقام مقال، وشعر الشاعر لنفسه وفي مراده وأمور ذاته من مدح وغزل، ومكاتبة ومجون وخمرية وما أشبه ذلك غير شعر في قصائد الحفل التي تقوم بها بين السماطين، يقبل منه في تلك الطرائق عفو كلامه، وما لم يتكلف له بالا، ولا ألقى به ولا يقبل منه في هذه إلا ما كان محككا، معاودا فيه النظر، جيدا لا غثّ فيه، ولا ساقط، ولا قلق، وشعره للأمير والقائد غير شعر للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع».[18]

والمقصود من هذا القول أن الشاعر يجب أن يراعي المقام الذي هو فيه، فإذا كان مقام مدح لا يمكن أن يدخل فيه الذم، والشعر الذي يقدمه للملوك والأمراء ليس هو نفسه الذي يقدم للقضاة والفقهاء وذلك لاختلاف مراتبهم وطبقاتهم وعلمهم وثقافتهم، فكل مقام يستوجب خطابا معينا له مع مراعاة الحالة النفسية التي يكون عليها المتلقي، وفكرة المقام تداولية أساسا، حيث نتجت من الشروط التي يكون فيه الشعر أو الخطاب مطابقا للحال التي يستخدم فيها بين المتكلم والسامع ومختلف الظروف والملابسات التي تكتنف ذلك.

فنجده "ابن رشيق" يخصص حسب المقامات أبوابا عدة من بينها باب النسيب ويقول فيه: «حق النسيب أن يكون حلو الألفاظ رسلها، قريب المعنى سهلها غير كز ولا غامض، وأن

يختار له من الكلام ما كان ظاهر المعنى، لين الإيثار، رطب المكسر، شفاف الجوهر، يطرب الحزين ويستخف الرصين».[19]

ويقول النسيب والتغزل والتشبيب كلها بمعنى واحد، وقال الحاتمي: «من حكم النسيب الذي يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم، متصلا به، غير منفصل عنه».[20]

وفي باب الافتخار يقول أيضا: «الافتخار هو المدح نفسه، إلاّ أنّ الشاعر يخص به نفسه وقومه، وكل ما حسن في المدح حسن في المدح حسن في الافتخار، وكل ما قبح فيه قبح في الافتخار».[21]

ونجده في باب الرثاء يقول: «وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أنه يخلط بالرثاء شيء يدل على أن المقصود به، حيث مثل "كان" أو "عدمنا به كبت وكبت" وما يشاكل هذا، ليعلم أنه ميت»، وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحرة، مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام، إن كان الميت ملكا أو رئيسا كبيرا».[22]

أمّا ما ورد في باب العتاب وذكر طرائفه، يقول ابن رشيق: «وللعتاب طرائق كثيرة، وللناس فيه ضروب مختلفة فمنه ما يمازجه الاستعطاف والاستئلاف، ومنه ما يدخله الاحتجاج والانتصاف، وقد يعرض فيه المن والإجحاف مثل ما يشركه الاعتذار والاعتراف».[23]

وفي باب الوعيد والإنذار، يقول: «كان العقلاء من الشعراء وذوو الحزم يتوعدون بالهجاء، ويحذرون من سوء الأحدوثة ولا يمضون القول إلا لضرورة لا يحسن السكوت معها».[24]
وما نراه في باب الهجاء حيث يروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: «خير الهجاء ما تنشده العذراء في خدرها فلا يقبح مثلها».[25]
. وهو ما عف لفظه وصدق معناه ومن كلام صاحب الوساطة «فأما الهجو فأبلغه ما خرج مخرج التهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتعريض، وما قربت معانيه، وتسهل حفظه وأسر علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس، فإمّا القذف والإفحاش فسباب محض وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن».[26]

يوجّه ابن رشيق الشاعر في باب الاعتذار فيقول: «وينبغي للشاعر أن لا يقول شيئا يحتاج أن يعتذر منه فإن اضطره المقدار إلى ذلك، وأوضعه فيه القضاة، فليذهب مذهبا لطيفا

وليقصد مقصدا عجيبا، وليعرف كيف يأخذ بقلب المعتذر إليه، وكيف يمسح أعطافه، ويستجلب رضاه، فإن إتيان المعتذر من باب الاحتجاج وإقامة الدليل خطأ، لاسيما مع الملوك وذوي السلطان».[27]

والملاحظ ممّا سبق ذكره من المقامات المختلفة التي أوردها واستدلّ بها ابن رشيق في كتابه العمدة والتي هي: الهجاء، المديح، الاعتذار، النسيب، والوعيد والإنذار، والافتخار والعتاب فهو جاء بها، وقدمها لكي يبين للشاعر أن لكل مقام مقال ويوضح له كيف يتصرف مع كل ظرف ومقام.

من هذه المقامات والتي لها طرائق وأساليب معينة يتخذها سواء من ناحية الألفاظ أو المعاني أو المقاصد، وأعطى لكل مقام منها كيف للشاعر أن يتصرف وأن يعبر وأن يشعر لاستحالة المتلقي وإذعانه وإقناعه والتأثير فيه، فالمقامات تختلف لذا على المتكلم (الشاعر) حسب ابن رشيق أن ينظر إلى ألفاظه ودلالات شعره بحسب الظروف والملابسات المحيطة به، وبحسب غرض الكلام وقصده، فقد فصَّل ابن رشيق وبيَّنَ وشرح في كل باب من الأبواب السابقة الذكر كيفية الطرائق الواجب اعتمادها واتخاذها في أحوال الكلام المختلفة بحسب ما يقتضيه الظاهر والظروف الخارجية المحيطة بالخطاب أو الشعر، وفي هذا كله قيم تداولية ومفهوم أساسي تقوم عليه اللسانيات التداولية وهو "المقام"، فهو الأساس في كل خطاب تداولية لأنه يمثل «البؤرة التي تلتقي فيها جميع العناصر الحجاجية من مقدرات برهانية وحقائق فعلية وقرائن بلاغية وقيم بشتى أقسامها، وعلاقة هذه القيم بمراتب الكائنات والأشخاص المعنيين بخطاب ما».[28] لذا فدور المقام فعال في كل خطاب بخاصة الخطابات الحجاجية.

فاهتمام ابن رشيق إذا في باب البلاغة ومضامينها بمطابقة الحال لمقتضى الحال، وبالمقام، يثبت «البعد التداولي لديه، فقد ربطت البلاغة عنده بين التشكيلات الكلامية والمقام وحال "السامع" و"المتكلم" وفي هذا الجانب سنوضح أكثر كيفية اهتمام ابن رشيق بالبنى التركيبية للخطاب والسياقات الخارجية المنسوبة إليه، ومن هذه المكونات والآليات التي تدخل في تركيب الخطاب ومطابقته للمقام هي (التقديم والتأخير، الفصل والوصل، الحذف، الإيجاز والإطناب) وطريقة بروزها في البعد التداولي.

1- التقديم والتأخير:

إن الحديث عن ظاهرة التقديم والتأخير في الموروث اللساني العربي يستوجب استحضار ثلاثة بحوث مختلفة تناولت هذه الظاهرة كل من زاوية معينة، وهي البحث النحوي والبحث البلاغي والبحث الأصولي، فالنحوي ينظر إليها من حيث علاقتها بالقواعد التي تضبط التراكيب العربية مع الحفاظ على البنية الأساس وهي العلاقة النحوية والاحتفاظ أيضا بالدلالة نفسها.[29] بينما البلاغي يسعى إلى الكشف عن أغراض ومقاصد المواقف التواصلية للتقديم والتأخير ومطابقتها لمقتضى الحال، بينما نجد الأصولي ينظر إليها من حيث الحاجة إلى التفسير سواء في الآيات القرآنية أو الأحكام الشرعية مراعيا السياقات الواردة فيها، فكل تقديم وتأخير إذا ينضوي تحته قصد معين يريد المتكلم إيصاله من خلال الخطاب، كما أن مسألة التقديم والتأخير تحدث من الأفعال الإنجازية التي سعت اللسانيات التداولية إلى تحليلها وتحقيقها والخوض فيها، فهي من القضايا المهمة التي تعترض طريق المتكلم فيراعيها كونها ارتبطت بمقصديته وغرضه من الخطاب، فكلما فهم السامع المقصد المنشود من الخطاب كلما أدى ذلك إلى نجاح العملية التخاطبية.

ونلفي ابن رشيق في كتابه يقول في قضية التقديم والتأخير في الكلام «ومن الشعراء من يضع كل لفظة موضعها لا يعدوه فيكون كلامه ظاهرا غير مشكل، وسهلا غير متكلف ومنهم من يقدم ويؤخر: إما لضرورة وزن، أو قافية وهو أعذر، وإمّا ليدلّ على أنه يعلم تصريف الكلام، ويقدر على تعقيده، وهذا هو العي عينه، وكذلك استعمال الغرائب والشذوذ التي يقل مثلها في الكلام».[30]

ويتابع الحديث في هذا الجانب ويقول: «ورأيت من علماء بلادنا من لا يحكم للشاعر بالتقدم، ولا يفضي له بالعلم إلا أن يكون في شعره التقديم والتأخير، وأنا أشغل من جهة ما قدمت، وأكثر ما تجده في أشعار النحويين».[31]

ونلحظ من خلال ما سبق من حديث ابن رشيق عن قضية التقديم والتأخير في الكلام أنه يعتبر عينا وعيا للمتلقي وهو يستشغل هذه القضية ويرى أنه للضرورة القصوى عند الوزن والقافية، أما خلاف ذلك فيعتبره إعياء، وقد ضرب بذلك أمثلة نحو قول الخنساء:[32] [من المتقارب]:

فنِعمَ الفتى في غداةِ الهياج إذا ما الرِّماحُ نجيعًا رَوَيْنَا.

فقدمت "نجيعا" على "روينا" مبادرة للخير بالري من أي شيء هو وكذلك يقول أبي السفاح بكير بن معدان اليربوعي:[33] (من السريع):

نهنهتُهُ عنك فلم ينْهَهُ بالسيفِ إلا جلدَاتٌ وجاعٌ.

أراد نهنهته عنك بالسيف، أو أراد فلم ينهه إلا جلدات وجاع بالسيف وكلاما فيه تقديم وتأخير.

فابن رشيق يمدح من لا يضمن شعره سوء التركيب والنظم أي «التقديم والتأخير»، فيجعل كلامه ظاهرا غير مشكل، فيمدحه بابتعاده عن الإشكال والتكلف، ومن ناحية أخرى يذك من يستخدم هذه الوسيلة فيقول: «ومنهم من يقدم ويؤخر ما لضرورة الوزن أو قافية وهو أعذب».[34] وهنا يتبين لنا الرؤية النقدية المتناقضة ذات وجهين لمسألة واحدة فهو ينبغي على من يفعل ذلك إظهارا لمقدرته على تصريف الكلام وتعقيده ويعود فيقول: «ورأيت من علماء بلدنا من لا يحكم للشاعر بالتقديم ولا يفضي له بالعلم إلا أن يضمن في شعره التقديم والتأخير، وأنا أستقل ذلك من جهة ما قدمت»، فهو في هذا الجانب يعتمد الذم لمن يفعل هذا أو ذاك لقوله: «وأنا أستقل ذلك»، فقد تردد في الرأي تارة بين معيار الإجادة وتارة معيار الإساءة، فهو يستحسن هذه الوسيلة لأهمية توظيفها في إثراء النظم بينما كثيرا ما يستهجن هذه الوسيلة اعتقادا منه بكونها وسيلة للتعقيد والمعاضلة، ولعل قضيتي التقديم والتأخير في الدراسات البلاغية المرتبطة بالمقامات التي تضفي نجاحا لعملية الخطاب تدعونا إلى استحضار تلك التنظيرات التداولية المتعلقة بالقوة الإنجازية للعبارات والأفعال الكلامية، حيث يرى التداوليون وعلى رأسهم "سورل" أنّ لمسألة ترتيب الكلمات في التراكيب اللغوية دورا طلائعيا في تحديد مدى قوة القوة الإنجازية في هذه الصياغات.[35]

2- الحذف والافتراض المسبق:

يعدّ مبحث الحذف من أهم المباحث التي لاقت اهتماما كبيرا من لدن البلاغيين العرب، فنجد عبد القاهر الجرجاني يفرد له بابا خاصا في كتابه "دلائل الإعجاز" فيقول: «هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ عجيب الأمر، شبيه بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادة، ونجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن».[36]

فالحذف كما يشير إليه الجرجاني يأتي وفقا لضوابط معينة، فالحذف في الموضع والحال الذي ينبغي أن يتوفر فيه الشروط التداولية، وبالتالي يحصل تأثير القول الذي تم فيه الحذف إلى استحالة السامع والتأثير فيه، ومن النماذج القولية التي يتم فيها الحذف نجد ابن رشيق يورد في مبحث من كتابه:

أ- **حذف جواب القسم وغيره**[37] يقول فيه: «وأن يحذف جواب القسم وغيره، نحو قوله عز وجل: (((**قَ والقُرآنِ المَجيدِ، بلْ عَجَبُوا أنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ**))).[38]

فالقصد من القسم في هذه الآية الكريمة هو تحقيق وتوكيد الخبر وقيل الجواب محذوف أي: «والقرآن المجيد حيث المقسم به يحتاج إلى جواب، والعبارة المجاورة بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم لا تصلح أن تكون جوابا أو تسد مسدّه، وتقدير الكلام والقرآن المجيد إنك لرسول الله بالحق، أي جئت بالحق والكلام المبين، فجوابه إذا محذوف فالمخاطب لكي –يقتنع– لابد أن يكون للمقسم به شيئا من التقدير والإجلال؛ لأن المتكلم إذا علم أن المقسم به هين عند المخاطب فإنه من العبث أن يتخذه وسيلة حجاجية، فالقرآن مجيد عند رب العالمين، لذا أقسم به وحذف جواب القسم لما في ذلك من بلاغة الإقناع والاختصار وإعمال الفكر، فقد استوفى القسم في هذا الموضع شروطه التداولية.

فالشاهد إذا هو حرف "الواو" الدال على القسم وجملة القسم في هذا الموضع شروطه التداولية، مكوّنة من المقسم وهو الله سبحانه وتعالى، والمقسم به وهو القرآن المجيد، فالله سبحانه وتعالى أقسم بالقرآن الكريم بأنه مجيد، فمكانة القرآن الكريم عالية وراقية، أما جواب القسم فهو محذوف في هذه الآية الكريمة بالتقدير السابق.

ويستدلّ ابن رشيق بآية أخرى لقوله تعالى: «**والنَازِعَاتِ غَرْقًا**» إلى قوله: «**يَوْمَ تَرْجَفُ الرَاجِفَةُ**»، فلم يأت بجواب لدلالة الكلام عليه، حيث أقسم ربنا جل جلاله بالنازعات، ولم يذكر بعدها مباشرة جواب القسم ممّا جعل ترك ذلك لمعرفة السامعين بالمعنى، والصواب من القول في ذلك أن جواب القسم في هذا الموضع ممّا استغنى عنه بدلالة الكلام فترك ذكره، وتلقى ابن القيم –رحمه الله– في كتابه البيان في أقسام القرآن في عدد من المواضع يقول: لا يوجد جواب أصلا وإنما المقصود التنويه بهذه الأمور ولفت النظر إليها، ويكفي هذا عن الجواب لأنه يشعر به «وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول صلى الله عليه

وسلم وثبوت القرآن، أو أنّه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة فيصل المعنى إلى قلب السامع فيفهمه دون أن يقدر، مما يعنيه ابن القيم أيضا أن السامع حينما يسمع هذه الأقسام يصل إلى فهمه المراد من هذه الأمور التي ذكرها الله على سبيل التعيين والتخصيص في قوله تعالى: «**والنَازِعَاتِ والنَاشِطَاتِ**» إلى آخره فيدرك السامع أن جواب القسم محذوف يدل عليه السياق، وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظا، ولعل هذا مراد من قال: أنه محذوف للعلم به لكن هذا الوجه ألطف مسلكا، فإن المقسم به إذا كان دالا على المقسم عليه مستلزما له استغنى عن ذكر يذكره وهذا كونه محذوفا لدلالة ما بعده عليه فتأمله».[39]

كما يدرك السامع الأمور التي ذكرها الله على سبيل التعيين والتخصيص في قوله تعالى: «**والنَازِعَاتِ والنَاشِطَاتِ**»، إلى آخره وهو قدرة وعظمة الله عز وجل ، وفي مثال آخر سنده ابن رشيق في هذا الجانب لقوله تعالى: «**وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ ورَحْمَتَهُ وأنَّ اللهَ رؤوفٌ رحِيمٌ**» [40] أيضا حذف جواب الشرط من هذه الآية وتقدير الكلام «**لعذَّبَكُمْ**» أو نحوه، أو يجعل لكم العذاب فجواب لولا محذوف لدلالة الكلام عليه وهذا الحذف تنعقد عليه أغراض ودلالات مبتغاة يفهمها السامع من خلال السياق.

ب– حذف "لا" وزيادتها: يقول في هذا الصدد ابن رشيق وحذف "لا" من الكلام وأنت تريدها،[41] كقوله تعالى: «**يا أيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أصْواتَكُمْ فوقَ صَوتِ النَّبِي ولا تَجْهَرُوا له بالقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبعضٍ أنْ تَحْبَطَ أعمالكمْ وأنتم لا تشْعُرونْ**»[42] وزيادة "لا" في الكلام كقوله سبحانه «**قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدْ إذ أمَرْتُكَ قال أنا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**»،[43] أي: ما منعك أن تسجد، وقال: وإنما تراد "لا"" في الكلام لإباء أو جحد.

ج– حذف المنادى: لقد استدل ابن رشيق في هذه المسألة بقوله تعالى: «**ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون**»[44] كأنه قال: «ألا يا هؤلاء اسجدوا لله، ولقد أضمروا اكتفاء بدلالة "يا" عليها ويكون حذف المنادى في القول لتأدية بعض المعاني التداولية نذكر منها:

– حذف المنادى قصدا للدلالة على الأداة التي قبله عليه لتقوية المعنى وإدراك السامع للخطاب والتأثير فيه وإقناعه دون ذكر المنادى ولأن الأداة تكتفي بذاتها للدلالة على المنادى دون ذكره.

– إثبات معنى الجواب سواء أكان قسما أو شرطا أو غيره بخاصة في القرآن الكريم، لأن الخطاب الواقع يدل على ما يترتب عنه من نتائج وعواقب كما ذكرنا في الأمثلة الآنفة الذكر، فالمعنى واضح وجلي دون الحاجة لذكر الجواب، فالقرآن الكريم ألفاظه واضحة ومقصودة ومعلوم خطابه لمن يوجه وأي فئة يوجهه، وما هي العواقب التي تنتج عنها.

فالحذف في هذه المواضع يزيّن المعنى ويمتّعه حتى يجعله أقوى وأبلغ في التلقي، وبذلك تظهر الجوانب التداولية في تحليل ابن رشيق والأمثلة التي استعان بها في هذا الباب، فالحذف يحرك نفس السامع ويجعله يعمل فكرة للوصول إلى المعنى المقصود.

وكذلك موضع آخر ذكره ابن رشيق في الحذف وهو حذف الفاء من جواب الجزاء، كما قال: (من الرجز)

يا أقرع بن حابس يا أقرع إنك إن يصرع أخوك تصرع»

التقدير عنده: «إنك تصرع إن يصرع أخوك» وهو عند المبرد على حذف الفاء.[45]

– حذف الياء من الذي فمنهم من يسكن الذال بعد الحذف ومنهم من يدعها مكسورة على لفظها، أنشد البصريون والكوفيون جميعا:

فَظَلْتَ في شَرٍّ من اللّذْ كيدَا كمنْ تربَّى زُبْيَةً فاصْطيدَا

ويروي «كالّذي تُربى زبية فاصطيدا، وجمع بين اللغتين وموضع آخر في الحذف وهو حذف الموصول وترك الصلة كما قال يزيد بن مفرغ».[46]

عَدَسْ مَا لعَبَّادِ عليك إمَارَةٌ نجوتِ وهذا تحملينَ طليقُ

أي والذي، أي هذا الذي تحملين طليق، وقال الشيخ سراج البلقيني: يجوز أن يكون المحذوف هو الموصول على راي الكوفيين أي، هذا الذي يملك، على أن الكوفيين يجوزون استعمال الإشارة بمعنى الاسم الموصول فيكون التقدير الذي يملك.[47]

والموضع هنا ذو غاية تداولية وهي اختبار السامع في الكشف عن المحذوف والتثنية عند قرائن الأحوال.

وما نلحظ من الأمثلة التي استدل بها ابن رشيق في كتابه لمواضع الحذف المتعددة والمختلفة أنه تارة يجوز للشاعر الحذف في مواضع معينة وتارة أخرى يستقبح الحذف في مواضع أخرى ومن دواعيه أن المتكلم أو الشاعر– كما يذكر ابن رشيق– أحيانا أن ترك الذكر أفصح من الذكر وأحيانا

أخرى يرى أنه لا يجوز له أن يحذف في بعض المواضع لأنها قبيحة فلا يجد فيها فائدة للسامع، بذلك تظهر الجوانب التداولية في تحليل ابن رشيق مثلا إذا ذكر الحذف في حالات معينة وهو يستقبحها إذا نتج عنه كلام غث يستنكره السامع ولا يتقبله، وفي حالات أخرى يجيز للشاعر الحذف لأنه يحرك نفس السامع وذهنه ويجعله يحاول الوصول للمعنى المقصود حيث يعمل ذهنه في البحث عن المحذوف ويقف على أسباب حذفه.

ويلتقي موضوع الحذف وارتباطه بالسامع مع مفهوم الافتراض المسبق الذي يعد أحد المفاهيم التداولية المتعلقة بجوانب ضمنية من قوانين الخطاب الذي يتم بين أطراف العملية التواصلية وهو أمر يفترضه المتكلمون ويسبق تفوههم بالكلام تيقّنا منهم بأنّ المستمعين عارفون لتلك المعارف والمعلومات السابقة ممّا يدفعهم إلى التفكير في الأمور التلميحية والمضامين المندرجة تحت هذا الخطاب، فالافتراض المسبق «مفهوم براجماتيكي تتضمنه العبارة في المقام الذي ترد فيه من حيث المعلومات المشتركة المعروفة مسبقا لدى المتكلم والمخاطب».[48] أي أن المتكلم أثناء إنتاجه للخطاب يجب أن يكون على دراية بأن السامع له علم وافتراض مسبق لما يقوله لنجاح العملية التخاطبية وذلك وفقا للمقام الوارد فيه.

د- الإيجاز الإطناب:

يعرف الإيجاز بأنه «الحصول على المعنى من دون الالتفات إلى أصل اللفظ أو تكراره» ويعرفه السكاكي بأنّه «أداء مقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط».[49]

وقد سئل ابن المقفع ما البلاغة؟ فقال: «اسم لمعان تجري في وجوه فمنها ما يكون في السكون، (...) فعامة هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة» وقد علّق ابن رشيق على ذلك قائلا: «فهذا ابن المقفع جعل السكون بلاغة رغبة في الإيجاز».[50] ويعبر آخر عن ذلك قائلا: «البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى» وقال خلف الأحمر: «البلاغة لمحة دالة».[51]

ونجد ابن رشيق في حده للإيجاز يستدل بقول الرماني (ت 386هـ) فيقول: الإيجاز عند الرماني على ضربين مطابق لفظة لمعناه لا يزيد عليه ولا ينقص عنه كقولك: «سل أهل القرية» ومنه ما فيه حذف للاستغناء عنه في ذلك الموضع كقول الله عز وجل: «واسأل القرية» ونوع الإيجاز هنا هو الإيجاز بالحذف، وعبر عن الإيجاز بأن قال: هو العبارة عن الغرض بأقل ما يمكن

من الحروف، وقد استحسن ابن رشيق هذا التعريف لقوله: «ونعم ما قال، إلا أن هذا الباب متسع جدا ولكل نوع منه تسمية سماها أهل هذه الصناعة».[52]

وعليه فإن قضية الحذف تراعي عدة عناصر تشكل في مجموعها حدثا كلاميا والقصد من الحذف هنا:

- قدرة المخاطب على إدراك العنصر المحذوف ومغزى الحذف.
- قصد المتكلم من الحذف.
- الموقف الكلامي (السياق/المقام) الذي يجيز صحة التركيب الواقع فيه الحذف.
- عناصر التركيب الذي يقع فيه الحذف والعلاقة بين العنصر المحذوف والعناصر القائمة تركيبيا ودلاليا.[53]
- وللإيجاز أضرب مختلفة نذكر منها ما ورد عند ابن رشيق في كتابه.

د- اعتدال الوزن:

يأتي ابن رشيق بمثال في هذا الضرب عن مساواة اللفظ مع المعنى فيقول: وأنشد عبد الكريم في اعتدال الوزن.

إنّما الذَلْفَاءُ همِّي فْليَدَعْنِي منْ يلُومُ
أحسنُ النّاس جميعا حين تمشي وتقومُ
أصلُ الحَبْلَ لترضى وهي للحبل صَرُومُ

ثم قال: عندهم أنه ليس في هذا الشعر فضله عن إقامة الوزن وهذه الأبيات وأشكالها داخلة في باب حسن النظم عند غير عبد الكريم. ويرى ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) "حد المساواة المحمودة هو إيضاح المعنى باللفظ الذي لا يوضحه".[54]

وحقيقة الأمر أن الإيجاز قضية متشعبة لارتباطها بمباحث لغوية وأدبية عديدة ولأنها «لا تتعلق بالقلة والكثرة في معناها الكمي الخالص، فالقليل من اللفظ والكثير من المعنى صفتان نوعيتان ترتبطان تحديدا بخصوصية العلاقة القائمة بين مكوني العلامة اللغوية، وهي علاقة يغذيها التضاد ويراد منها تحقيق معادلة صعبة لا تتأتى إلا للبليغ الخير بطرائق استثمار الطاقة الإيحائية للغة ولولا أهمية الإيجاز بما هو قاعدة مركزية حاضنة لعلاقة اللفظ بالمعنى في تصور العرب للبلاغة

النموذج، لما اهتم به الجاحظ بالغ الاهتمام ولما جعله قرين (البلاغة) في عنوان رسالته (البلاغة والإيجاز) فكان الإيجاز لديه من أبرز مرتكزات البلاغة».[55]

وإذا نظرنا إلى التراث اللغوي العربي كما هو الحال عند ابن رشيق لوجدنا بروز ظاهرة الإيجاز بطرق مختلفة، والذي يكسب العبارة قوة في اللفظ والمعنى ويجنبها ثقل الاستطالة كل هذا يدل على البعد التداولي للإيجاز في رغبة المتكلم لإلفات السامع وجلبه ومراعاة حالته وظروفه المختلفة ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.

خاتمة:

ممّا سبق نتوصل إلى نقطة مهمة وهي اهتمام ابن رشيق وعنايته بكل ما يخص المخاطب وما يتعلق به لاتخاذه أساليب متنوعة تساعده في إيصال شعره ونجاح عملية التخاطب، وذلك بمراعاته للأحوال المذكورة آنفا النفسية والذهنية والاجتماعية ، كما نبّه ابن رشيق أيضا على التزام الشاعر بخاصية الخروج والانتقال في الشعر ليقنع السامع ويجعله يتأثر ويعجب بشعره، كل هذه الآليات والأساليب التي اتخذها ابن رشيق في كتابه العمدة بعين الاعتبار تجعلنا ندرك الترابط القوي والتداخل الذي يظهر جليّا بين الدراسات القديمة واللسانيات التداولية الحديثة.ومن النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث:

– اهتمام ابن رشيق بعملية القصد والإفادة، وتوجيه الشاعر إلى الاهتمام بهما وإدراجهما في شعره بغرض إيصال شعره إلى ذهن السامع وتقبله والتأثير فيه. علوم البلاغة عند ابن رشيق تحمل في طياتها بعدا تداوليا في العديد من أساليبها وآلياتها، كما تحمل العملية التواصلية هي أيضا أبعادا تداولية في صميمها، لأنها تقوم على العناية بأهم عناصر العملية الخطابية والتي تهتم بدورها بالخطاب –أي باللغة– والتي تعنى بها التداولية أثناء استعمالاتها المختلفة مع مراعاة المقاصد والغرض من ورائها.

– دور علوم البلاغة في أغلب تعاريف البلاغيين القدامى يقوم على الإفادة والإفهام والتبليغ وعلى التأثير في المتلقي وعلى المقام الذي ورد فيه الخطاب ، كما تبيّن لنا أنّ الصور البلاغية ليست مجرد صور للتنميق والزخرفة وتزيين الخطاب والشعر، بل أداة لإنجاز أفعال وتحسين حالة المخاطب وإذعانه والتأثير فيه.

– يضم كتاب "العمدة" آليات بلاغية عديدة تتباين فيما بينها لكنها تصب وتؤول إلى بنية خطابية واحدة تقوم على التركيب والدلالة والتداول.

هوامش:

[1] Michael (ashby): oxford advanced learner's dictionary of current english, sixth edition: sally wehmeier, oxford university press, 2000, p990.

[2] Algirdas julien (Greimas) , joseph (courtés) : linguistique sémiotique: dictionnaire résonné de la théorie du langage huchette supérieur (paris), 1979, p288.

[3] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دار الجيل، حققه وفصله: محمد محي الدين عبد الحميد، ط05، 1401هـ-1981م، 204/1.

[4] المصدر نفسه، 196/1.

[5] المصدر نفسه، 244/1.

[6] المصدر نفسه، 223/1.

[7] المصدر نفسه، 257/1.

[8] المصدر نفسه، 247/1.

[9] المصدر نفسه، 266/1.

[10] ديوان السموأل، تح وشرح: واضح السمد، دار الجيل، بيروت، ط01، 1416هـ-1996م، ص 70.

[11] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 199/1.

[12] المصدر نفسه، 199/1.

[13] المصدر نفسه، 169/1.

[14] المصدر نفسه، 212/2.

[15] المصدر نفسه، 213/2.

[16] صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط01، 2004، ص 299.

[17] المرجع نفسه، ص26.

[18] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 199/1.

[19] المصدر نفسه، 116/2.

[20] المصدر نفسه، 117/2.

[21] المصدر نفسه، 143/2.

[22] المصدر نفسه، 147/2.

[23] المصدر نفسه، 160/2.

[24] المصدر نفسه، 167/2.

[25] المصدر نفسه، 170/2.

[26] المصدر نفسه، 171/2.

[27] المصدر نفسه، 176/2.

[28] محمد سالم ولد محمد الأمين: مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، مجلة عالم الفكر، ج28، العدد الثالث (03)، يناير مارس، 2000م، ص 83.

[29] ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية،، دار الكتاب الجديد، بيروت/ لبنان، ط01، 2004 ص 141.

[30] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 260/1.

[31] المصدر نفسه، 261/1.

[32] ديوان الخنساء شرحه وضبطه، عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، لبنان، ص 105.

[33] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 260/1.

[34] المصدر نفسه، 260/1.

[35] ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، (د.ب)، 2002، ص 47.

[36] عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (371هـ): دلائل الإعجاز قرأه وعلق عليه: أبو فهد محمود محمد شاكر الناشر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 112.

[37] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،277/2.

[38] سورة ق، الآية:01.

[39] ينظر: حمزة بن محمد علي آل ياسين عسيري: التبيان في أقسام القرآن للإمام ابن القيم دراسة وتحقيق، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير، إشراف: أمين بن محمد باشا، المملكة العربية السعودية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1422هـ-2001م، ص 255-256.

[40] سورة النور، الآية:20.

[41] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 278/2.

[42] سورة الحجرات، الآية 02.

[43] سورة الأعراف، الآية 12.

[44] سورة النمل، الآية 25.

[45] أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى الأعلم الشنتمري، النكت في تغيير كتاب سيبويه وتبيين الخفي من لفظه وشرح أبياته وغريبة، ضبطه ونصه، يحي مراد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 283.

[46] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 273/2.

[47] جلال الدين السيوطي (ت991هـ): عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبوي، حققه سلمان القضاة، دار الجيل، بيروت، 1414 هـ، 1994م، ص 378.

[48] شاهر (الحسن): علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر، عمان، الأردن، ط1 ، 2001، ص 176.

[49] السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط02، 1978م، ص277.

[50] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،243/1.

[51] المصدر نفسه، 242/1.

[52] المصدر نفسه، 250/1.

[53] ممدوح عبد الرحمن، من أصول التحويل في نحو العربية، دار المعرفة الجامعية، د ط، 1999، ص ص 146-147.

[54] أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (390-456هـ): العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده،250/1-

[55] أحمد الودرني: قضية اللفظ والمعنى ونظرية الشعر عند العرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004، ص 789.